

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الرابع - شتاء ١٣٩٠ ش/كانون الأول ٢٠١١م

الخصائص الفنية لمضامين شعر محمود درويش

حسن مجيدى*

فرشته جان نثارى**

الملخص

يعتبر محمود درويش من أشهر شعراء المقاومة لفلسطين، الذي عاش في الغربية والتشريد، وحمل أعباء القضية الفلسطينية. شعره أقرب إلى صدق التجربة والإصالة في تصوير صراع الإنسان الفلسطيني. فصوته يرتفع ويصور حبه ورفضه. ورغم حصار الشعب الفلسطيني، ومحاولات التصفية الجسدية، والنفسية، والحضارية، هذا الصوت الذي يتجلى في قصائده تذوب بين سطورها كلمة فلسطين ومأساتها، كأنه يخرج من بركان لا يهدأ إلا لثبور. ولكن لم يصرفه الحديث عن شعر النكبة من الاهتمام بالشعر العربي؛ إذ شعره غير منقطع عن حركة الشعر في البلاد العربية، وغير متجزئ منها، لأنه قد تربي على أيدي الشعراء العرب القدامى والمعاصرين. نعالج في هذا المقال بعض مضامين قصائده عن المقاومة، وهو: التجدي، البؤس والحرمان، التشريد والإبعاد، القتل والاعتقال، السجن، الصمود ورفض المساومة، والأرض، والأمل إلى المستقبل.

الكلمات الدليلية: محمود درويش، أدب المقاومة، مضامين الشعر، دراسة فنية.

**. عضو هيئة التدريس في جامعة تربيت معلم بسبزووار - أستاذ مساعد.

**. طالبة ماجستير في جامعة تربيت معلم بسبزووار.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د.حسن شوندى

Majidi.dr@gmail.com

تاريخ القبول: ١٥/٩/١٣٩٠ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣/٧/١٣٩٠ هـ. ش

www.SID.ir

المقدمة

إنّ اللغة مرآة حال الأمة، وسجلّ مفاخرها، والشاهد على مجدها في المجالات الاجتماعية والأدبية والسياسية والإدارية، تعزّ بعزة أمتها، وتذلّ بذلتها. (أحمد عثمان، ٢٠١١م: ٩) أحد الشعراء الذين يعتبر شعره مرآة لظروف حياته ومجد شعبه، هو الشاعر الفلسطيني الحاذق، محمود درويش.

هو محمود سليم درويش ولد في ١٣ مارس عام ١٩٤١م في قرية "البروة" في الجليل، ونزح مع عائلته إلى لبنان في نكبة عام ١٩٤٨م، وعاد إلى فلسطين متخفياً ليجد قريته قددمرت. فاستقر في قرية "الجديدة" شمالي غربي قريته البروة. وأتم تعليمه الابتدائي في قرية دير الأسد بالجليل، وتلقى تعليمه الثانوي في قرية كفر ياسيف. (روبرت كاميل، ١٩٩٦م: ٥٩٤)

انضم درويش إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي في فلسطين، وعمل محرراً ومترجماً في صحيفة الاتحاد، ومجلة الجديد التابعتين للحزب، وأصبح فيما بعد مشرفاً على تحرير المجلة كما اشترك في تحرير جريدة الفجر.

اعتقل أكثر من مرة من قبل السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦١م بسبب نشاطاته وأقواله السياسية. وفي عام ١٩٧٢م توجه إلى موسكو، ومنها إلى القاهرة، وانتقل بعدها إلى لبنان حيث ترأس مركز الأبحاث الفلسطينية، وشغل منصب رئيس تحرير مجلة "شؤون فلسطينية"، ورئيس رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وأسس مجلة الكرمل الثقافية في بيروت عام ١٩٨١م ومازال رئيساً لتحريرها حتى الآن.

انتخب درويش كعضو في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٨٨م، ثم مستشاراً للرئيس الراحل ياسر عرفات. وفي عام ١٩٩٣م استقال من اللجنة التنفيذية احتجاجاً على توقيع اتفاق أوسلو. عاد عام ١٩٩٤ إلى فلسطين ليقوم في رام الله، بعد أن تنقل في عدة أماكن كبيروت والقاهرة وتونس وباريس.

بدأ كتابة الشعر في المرحلة الابتدائية، وعرف كأحد أدباء المقاومة. ولدرويش ما يزيد على ثلاثين ديواناً من الشعر والنثر بالإضافة إلى ثمانية كتب. وترجم شعره إلى

عدة لغات، وقد أثارت قصيدته "عابرون في كلام عابر" جدلاً داخل الكنيسة. نشر درويش آخر قصائده بعنوان "أنت منذ الآن غيرك" سنة ٢٠٠٧م، وقد انتقد فيها التقاتل الفلسطيني. ومن دواوينه: عصافير بلا أجنحة، أوراق الزيتون، أصدقائي لامتوتوا، عاشق من فلسطين، العصافير تموت في الجليل، مديح الظل العالي، حالة حصار، وغيره.

كما حصل على عدة جوائز منها جائزة لوتس عام ١٩٦٩م، جائزة البحر المتوسط عام ١٩٨٠م، دروع الثورة الفلسطينية عام ١٩٨١م، لوحة أوروبا للشعر عام ١٩٨١م، جائزة ابن سينا في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٢م، جائزة لينين في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٣م، جائزة الأمير كلاوس (هولندا) عام ٢٠٠٤م، جائزة العويس الثقافية مناصفة مع الشاعر السوري أدونيس عام ٢٠٠٤م.

شعره ومضامينه

بما أن درويش هو شاعر المقاومة فأكثر مضامين شعره يدور حول فلسطين والاحتلال، وعند التطرق لدواوينه نجد مضامين قصائده تتكون من التحدي، البؤس والحرمان، التشريد والإبعاد، القتل والاعتقال، السجن، الصمود ورفض المساومة، والأرض، والأمل إلى المستقبل، التي نحاول معالجتها في هذا المقال، وفيما يلي:

التحدي

يعتبر محمود درويش الشعر سلاحاً في الصراع بينه وبين اليهود، إذ يقول: «نحن في الحاجة إلى درس الوطن الأوّل، أن نقاوم بما نملك من عناد وسخرية، بما نملك من جنون.» (درويش والقاسم، ١٩٩٠م: ٦)

يظهر هذا العناد في كثير من أبياته، يستهدف إلى اضطراب نيران المقاومة والدفاع، في قلوب الشعب الفلسطيني، وفي قالب الكلمات التحذيرية إلى حد نستطيع أن ندعي أن جوهر أدبه الرفض، وأن مثل هذه القصائد تمثل المقاومة في أوضح صورها، عندما

تكون فوهة البندقية مصوبة إلى صدر الشاعر الأعزل تمثل لكلماته الجرأة والرجولة الدهنية والعقائدية.

هو يقول: «إننا نخوض المعركة إن لم نتسلح تفاعلاً تاريخياً وبجواز تشد العضة في معركة التحدى، فكيف نمضى؟ إننا نعيش في المعركة لحظة تلو لحظة، وتكاد الألمضى دقيقة من عمرنا إلا ونحس أننا أمام التحديات الكبرى المستمرة. إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى، لأننا نقادم ترجمة الوطن كله إلى العربية لغة، وإلى الصهيونية أرضاً وتقاليد وزادا.» (درويش، ١٩٧١م: ٣٠٠)

ويوقن درویش بدور أشعاره و مسؤولیة الكلمة فی صحو الشعب وتحريضهم إلى القيام، فيقول:

كل الرواية فى دمی مفاصلها
تفضل الحقد كبريتا على شفتى
أطعمت للريح أبياتى وزخرفها
إن لم تكن كسيوف النار.... قافيتى!
آمنت بالحرف.... إما ميتا عدما
أو ناصبا لعدوى جبل مشنقة
آمنت بالحرف.... لا لا يصير إذا
كنت الرماد أنا.... أو كان طاغيتى!
فإن سقطت.... وكفى رافع علمى
سيكتب الناس فوق القبر: لم يمتم
(درويش، ١٩٨٤م: ٩)

يؤمن درویش ببقاء صوته خالدا حتى بعد الموت وإنه يحرق حياة الصهيونية كالنار. إنه يوصى رفاقه الشعراء بترك قصائدهم الماضية التي كانت تدور حول وصف النجم فوق غيمة والليالى والقمر والخمر و تودد النساء، لأنه قد تغير كل شىء بعد هجمة اليهود،

ومات ما فات، وهو يقول:

نحن فى دنيا جديدة

مات ما فات، فمنا يكتب قصيدة

فى زمان الريح والذرة

يخلق الأنبياء!

قصائدنا، بلالون

بلاطعم.....بلاصوت!

إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت!

وإن لم يفهم "البسطاء" معانيها

فأولى أن نذريها

ونخلد نحن.....للصمت

(درويش، ١٩٨٤م: ٥٥)

يرجو درويش أن تكون أشعاره كوسيلة للحرب، تسوق الشعب إلى القيام، وأن تكون
إزميلا فى قبضة كادح، وقنبلة فى كف مكافح، محرثا بين يدي فلاح، و يفخر بكلماته،
أن تكون غضبا ومجرا فى يد المناضلين، وحنظلا فى فم العدو، ويقول:

لست جنديا كما يطلب منى

فسلاحى كلمة

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٧٢)

إنه يأمل أن يحفظ الناس قصائده عن ظهر قلوبهم، ويشربون هذه الأناشيد حتى تؤثر
فى قلوبهم. فإنه لا ينظم أشعار الحب والغزل كالبلابل، بل تعلم من السلاسل أن يقاتل
من أجل وطنه بأشعاره:

يداك خمائل

ولكننى لأغنى

ككل البلابل

فإن السلاسل
تعلمنى أن أقاتل
أقاتل..... أقاتل
لأنى أحبك أكثر

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٤٤-٢٤٣)

وفى قصيدة أخرى يحذر العدو من غضبه قائلاً:
أنا لا أكره الناس
ولأأسطو على أحد
ولكننى....إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبى
حذار...حذار...من جوعى
ومن غضبى!!

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٧١٦)

ثم يخاطب الأعداء، ويحذرهم بأن الدماء التى يشربونها من جثث الشعب الفلسطينى،
تخنقهم فى المستقبل القريب، كأنه يسمع صوتاً من السماء يصرخ ويخاطب الأعداء
الذين أغاروا، وهدموا بيوت الشعب الفلسطينى، وشيدوا بلاطهم على أشلاء الشعب
وأنقاض بيوتهم:

يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقة!
يا ويل من شرابه دماء!
ومن بنى...حديقة...ترايبها أشلاء
يا ويلة من وردھا المسموم!!

(درويش، ١٩٨٤م، ص ٤٣)

وفى قصيدة "أمل" ينظم قائلاً:

مازال في صحنكم بقية من العسل
ردوا الذباب عن صحنكم
لتحفظوا العسل!!
مازال في كرومكم عناقيد من العنب
ردّوا بنات آوى
يا حارسى الكروم
لينضج العنب...
مازال فى بيوتكم حصيرة...وباب
سروا طريق الريح عن صغاركم
ليرقد الأطفال
الريح...برد قارس...فلتغلقوا الأبواب...
(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١٥-١٤)

فى هذه القصيدة يدعو درويش الناس إلى المقاومة والقيام لحفظ كل ما يمتلكون، من تعدى العدو، حتى آخر قطرة من دمائهم، ويحرض الشاعر الناس لرد العدو، ويحرض الناس أن يغلقوا أبواب بيوتهم، ويحفظوا أطفالهم أمام العدو. يدعو درويش الشعب إلى توحيد الصنوف والإتحاد أمام العدو فى بعض قصائده، ويريد من الشعب أن يضغطوا الكف على الكف، ويمشوا إلى صنوف الأعداء، ويخبرهم بأن هذه العقدة لا تحل إلا بيد الفلسطينيين أنفسهم:

من نفترق
أما منا البحار، والغابات
وراءنا، فكيف نفترق؟
يا صاحبى!
ياأسود العينين
خذنى! كيف نفترق؟

وليس لي سواك!

(درويش، ١٩٨٤م: ٥٢)

اختار درويش سبيل القيام ضد العدو، ويؤكد على صحة هذا الطريق عندما يسأل السيد المسيح (ع) عن السبيل الذي يريد أن يختاره بعد أن يشكو الله من معاناة احتلال وطنه:

أل و...

أريد يسوع

نعم! من أنت؟

أنا أحكى من إسرائيل

وفى قدمى مسامير وإكليل

من الأشواك أحمله

فأى سبيل

أختار يا بن الله... أى سبيل؟

أأكفر بالخلاص الحلو

أم أمشى؟

ولو أمشى وأحتضر

أقول لكم: أما ما أيها البشر!

(درويش، ١٩٨٤م: ١٦٥)

البؤس والحرمان

حرم الشعب الفلسطيني من الأمن وحرية البيان، ليس له حق الحياة، وهو محكوم بالتشرد والسجن والخوف والاعتقال، سلب منه وطنه وجميع حقوقه الطبيعية، وتفكك إلى وحدات كالحصى والرمل. ولكن رغم كبت الحرية الفكرية من جانب اليهود، نشأ في فلسطين جيل من الشعراء الذين ولدوا وترعرعوا في حضن المأساة، وشاهدوا الحقيقة

وعاشوها، فخرجت من قلوبهم النبرة الشعرية المملوءة بالبؤس والحرمان والحزن والأسى، ومحمود درويش من الذين ذاق مرارة المأساة ونمت أغصان نخلة أغانيهم فى الحزن والفوضى.

تموج أشعار محمود درويش بالسطور التى تنقل المعاناة ونتائج المأساة الأليمة بكل أبعادها، فهذه المأساة حلقة من صراع الإنسان المسحوق، ليأخذ دوره الذى يستحق فى الحياة وفى نشاطه البشرى. إنه لا يصمت، وشعره ليس معزولا عن الناس، لأنه يعتقد بأن الصمت المفروض من جانب العدو يساوى الموت، وهو كالسيف الذى يجرحه:

الشاعر العربى المحروم...

تعوّد أن يموت بسيف صمته

ألقي على عينيه كل السر

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٤٨)

وهاهو محمود درويش، محروم من كل النعم التى خلقها الله، وأودعها فى تراب فلسطين. إنه محروم عن جميع حقوقه، حتى عن حق التكلم، واليهود لا يسمحون له وصف حرمان الشعب وبؤسه فى قصائده. ولكن تتجلى حياة الوطن فى أشعاره. فإنه يبلغ نداءه، ويريد أن يتكلم، ويبلغ رسالته إلى مسامع المجتمع العربى:

فدعونا نتكلم

ودعوا حنجرة الأموات فىنا نتكلم

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٩٠)

إنه يعتقد بأن جثث أبناء فلسطين التى تتساقط كأوراق الشجرة على الأرض أرفع صوت لإبلاغ نداء التظلم والحرمان. فيصور درويش خصوبة أرض فلسطين ونضرتها، وسماءها الزرقاء والسكينة والهدوء المخيمين عليها بكلمات ممزجة بالأسف والحنين، الأسف الناجم عن اغتصاب هذه النعم، وهو حائر لا يعرف سبب هذا الاغتصاب:

غابة الزيتون كانت مرة خضراء

كانت.... والسما

غاية زرقاء... كانت يا حبيبي
 ما الذى غيرها هذا المساء!
 أوقفوا سيارة العمال فى منعطف الدرب
 وكانوا هادئين

وأدارونا إلى الشرق... وكانوا هادئين
 كان قلبى مرة عصفورة زرقاء... يا عش حبيبي
 ومناديلك عندى، كلها بيضاء كانت يا حبيبي
 ما الذى لطحها هذا المساء؟

أنا لأفهم شيئاً يا حبيبي
 (المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٢١٥-٢١٦)

إنه يذكر أيام طفولته، تلك الأيام التى عاشها فى قرية "بروة" لعب بين ورودها
 وزيتونها، وتنفس فى جوها الرائع، لا ينسى درويش ذاك اليوم الذى هدم اليهود بيته،
 وداسوا أزهاره بأقدامهم. فنضب الآبار والمياه، وأصبح درويش محروماً من كل النعم
 منذ الطفولة:

عندما كنت صغيراً
 وجميلاً

كانت الوردة دارى

والينابيع بحارى

صارت الوردة جرحاً

وينابيع ظمأً

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٨١)

ويصف درويش فى بضعة أسطر جميع الجرائم التى اقترفها اليهود ضد شعب فلسطين،
 من سلب حريته فى التعبير، والقيود والسلاسل التى وضعوها على يده، والتعذيب فى
 غرفة التوقيف والسب والشتم، وما واجهه من الافتراء والاثام بسبب عربته. فهو يصف

بلغة سهلة، واضحة حرمان شعبه من الطعام والملابس، ومن وطنه فلسطين التي شبهها بحبيبته الصغيرة، التي قبض عليها الأعداء:

وضعوا على فمه السلايل

ربطوا يديه بصخرة الموتى

وقالوا: أنت قاتل!

أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق

ورموه في زنزانة الموتى

وقالوا: أنت سارق!

طردوه من كل المرافى

أخذوا حبيبته الصغيرة

ثم قالوا: أنت لاجئ!

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٣٢٣)

كيف يستطيع درويش أن يفرح، حيث يتكسر جسم وطنه المكبول، ويعانى شعبه، ويحزن صوته من أجل حرمان الشعب والوطن، كيف لا؟ وهو يشاهد هذا الحزن فى كل شبر من فلسطين، حتى فى القمر، وفى صوت المياه المتقطرة من روافد البيت، وفى عيون حبيبته الساهمة، وفى يدى أبيه المثفتين:

كان القمر

كعهده - منذ ولدنا - باردا

الحزن فى حبيبه مفرق...

روافدا.. روافدا

قرب سياج قرية

خرّ حزينا شاردا...

كان حبيبي

كعهده - منذ التقينا - ساهما

الغيم فى عيونہ...

كان أبى

كعہدہ، محملاً متاعباً

يطارد الرغيف أينما مضى...

لأجله يصارع الثعالباً

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٦-٢٧)

سلب من الفلسطینی كل شىء حتى بيته، وظل شريداً، لا يأمن من الريح والأمطار، ويحاول درويش إيصال هذا الحرمان إلى مسمع المجتمع العربى والعالم كله، بينما يعلم

لأجدوى من هذا التظلم:

وأنا الأسفلت

تحت الريح و الأمطار

مطحون الجنان

لا تفتح الأبواب فى وجهى

ولا تمتد نحو يدي يدان

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١١٩)

إن درويش يتمسك بقوة، وهى فوق الطاقة البشرية، إذ يندھش من ظلمة الغربية والأبواب المغلقة أمامه، يتصل فى خياله بنبيه محمد(ص)، ويتظلم عنده من كل المعاناة التى فرضها عليه اليهود، يشكو من سلب حريره، وغضب أرضه وبيته، ويتألم الغربية التى أثقلت كاهل شعبه فى المنفى، ثم يسأل تدبير الأمر، ويسمع من لسان النبى ذاك العامل الفريد الذى يمكن بمساندته تحمل كل المرارة، وهو الإيمان والأمل بالله تعالى:

ألو....

أريد محمد العرب

نعم! من أنت؟

سجين فى بلادى

بلا أرض، بلا علم، بلا بيت
رموا أهلى إلى المنفى
وجاؤوا يشترون النار فى صوتى لـ
أخرج من ظلام السجىن.....
ما أفعل؟

تحدّ السجىن والسجان
فإن حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظل!
(درويش، ١٩٨٤م: ١٥٧-١٥٦)

التشريد والإبعاد

أبعد مئات آلاف من أبناء فلسطين عن أرضهم وجذورهم وحضارتهم بعد نكبة ١٩٤٨م، وعاشوا فى الغربية بكل المرارة، باحثين عن مأوى، لاجئين فى الخيام، أو مشردين على هامش مجتمعات غريبة.

بدأ أبناء فلسطين سفرا لاينتهى تحت رياح الضياع والغربة، حاملين عذابات الارتحال الدائم، السفر الذى جعل المشردين كأزهار ذابلة، وذاق درويش مرارة الغربية والبعد كمواطنيه الآخرين، إذ جرّب الاغتراب داخل الوطن والنفى خارجه.

وأثر هذا الاغتراب والتنقل من عاصمة إلى أخرى، فى نفس درويش، وجعلا أشعاره حيننا مؤثرا فى النفوس، ذلك أن الأغاني تخرج من القلوب الجريحة التى حرقتها الغربية، ويصف فى قصائده حياته فى المنفى، ليس له رفيق غير شعره، وهو فى المنفى بعيد عن حنان وطنه وربيع عينيه، ولكنه لا يكتفى بالتعبير عن نفسه فحسب، بل يصور العذاب الملحق بأبناء شعبه فى المنفى من الاغتراب والإحساس بضياع الهوية، ووحشة البيت الخالى من الضحك والسرور:

وحين أعود للبيت

وحيدا فارغا إلا من الوحدة
 يداى بغير أمتعة، وقلبي دونما وردة
 فقد وزعت ورداتي
 على البؤساء منذ الصبح.....ورداتي
 و صارعت الذئاب، وعدت للبيت
 بلارنات ضحكة حلوة البيت...
 وحيدا أصنع القهوة
 وحيدا أشرب القهوة
 فأخسر من حياتي...من كفاحي
 أخسر النشوة
 رفاقي هاهنا
 المصباح والأشعار، والوحدة
 وبعض سجائر...وجرائد كالليل مسودة
 وحين أعود للبيت
 أحس بوحشة البيت
 وأخسر من حياتي كل ورداتي
 وسرّالنبع....نبع الضوء فى أعماق مأساتي
 واختزن العذاب لأننى وحدى
 (المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٣٢-٣١)

فى قصيدة «رسالة فى المنفى» يصور درويش معاناته اليومية فى المنفى. فما عنده شىء إلا رغيفا يابسا، ودفتر أشعاره. إنه كطائر جريح فقد ريشه، وهو لا يستطيع الطيران، ينظر أن ينبت الريش على جناحه لكي يلحق فى أجواء الوطن، يكتب رسالة إلى أهله ليخبرهم عن صحته، بينما يعلم بأن ليس أى بريد لحمل رسالته، ولهذا يبلغ نداءه بالصفير الحرة. وفى رأيه أن الغريب يموت مرتين: الموت الأول، وهو غُرْبَتُهُ فى

المنفى، لأن الوطن كل حياة الإنسان، وعندما يسلب عنه، فلا قيمة له بلا وطن:

وقال صاحبي: هل عندكم رغيّف؟

يا إخوتي؟ ما قيمة الإنسان

أن نام كل ليلة...جوعان؟

أنا بخير أنا بخير

عندى رغيّف أثمر

وسلة صغيرة من الخضار

الليل - يا أماه - ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب أينما مضى

ويفتح الآفاق للأشباح

غاية الصفصاف لم تزل تعانق الرياح

ماذا جنينا نحن يا أماه؟

حتى نموت مرتين

فمرة نموت فى الحياة

ومرة نموت عند الموت!...هل يذكر المساء

هاجرا مات بلا كفن؟

أماه يا أماه

لمن كتبت هذه الأوراق

أى بريد ذاهب سدت طريق البر والآفاق...وأنت يا أماه؟

والدى، وإخوتي والأهل و الرفاق....

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلى بلا عنوان

ما قيمة الإنسان

بلا وطن، بلا علم، ودوننا عنوان

ما قيمة الإنسان؟

(درويش، ١٩٨٤م: ٣٩-٣٥)

تمتزج قصائد درويش التي تمحور عن غربة المنفى، بالحزن والحسرة، ولكن لا يختم عليها اليأس، بل في كثير من قصائده يجد الأمل بالعودة إلى الوطن، لأن مرارة التشرد وقسوة السوط إذا انتصرتا على أجساد المتشردين فلن تنتصرا على جوهرهم، والكرامة هي المبرر الوحيد لاحتمال عذاب الإنسان، هو يذكر للمتشردين أرقام أسرى في روم وسبايا في بابل وإفريقيا، وتفتت البلاط بأيدي هؤلاء الأسرى:

ونعنى القدس:

يا أطفال بابل

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس قريباً

وقريبا تكبرون

وقريبا تحصدون القمح في ذاكرة الماضي

قريبا يصيح الدمع سنابل

آه يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريباً

وقريبا تكبرون

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٣٩٨)

القتل والاعتقال

نشاهد بين سطور أوراق ديوان أدب المقاومة عند تصفحه شرح جرائم المعتدين وسفك دماء المظلومين، وفقدان الأمن النفسى، واستشهاد النساء والأطفال فى الشوارع والبيوت. تعد المجزرة العامة فى كفر قاسم عام ١٩٥٦م من الحوادث التى كان لها صدى

عظيم بين الشعراء الفلسطينيين، خاصة محمود درويش. له أناشيد كاملة عن كفر قاسم في ديوانه الأخير «آخر الليل». فإنه يخلد ذكرى هذه المصيبة في قلوب أبناء فلسطين إلى الأبد، ويتعلم من هذه المذبحة، ومن ضربة الجلاد والحقد الذي يزرع في قلبه عوسج أن لا يساوم، بل يمشى ويقاوم. إنه يعتقد بأن الشعب الفلسطيني تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة، حرية اختيار الموت في سبيل الحياة و المناضلون -وحدهم- قادرون دائماً على تغيير المفاهيم، هكذا يصبح مفهوم الموت، مفهوم الحياة:

أعينني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي

وأمشي، ثم أمشي، وأقاوم

(كنعاني، ١٩٨٧م، ٩٥)

يعنى محمود بآلام وطنه، الوطن الذي أصبح كحيل غسيل المناديل، الدم المسفوك في كل دقيقة، دم أسراب العصافير التي تسقط كالورق الزائد بآبار الزمن، هو يعرض تصويراً مؤلماً من قتل أم بين يدي بنتها الصغيرة:

الطفلة احترقت أمها

أمامها...

احترقت كالمساء

وعلموها: يصير اسمها

في السنة القادمة سيده الشهداء

و سوف تأتي إليها

إذا وافق الأنبياء

(درويش، ١٩٨٤م، ٤٣٨)

السجن

عاش محمود درويش حقيقة السجن، إذ ذاقه منذ حادثته مرارا بسبب أغانيه المفعمة بالتحدي والغضب و التي تدافع عن الشعب الفلسطيني وعبير البرتقال. ظن العدو الصهيوني أنه يستطيع أن يسكت حنجرة الشاعر باعتقاله في السجن، بينما لا يخرج صوت الشاعر من فمه، بل يخرج من قلبه، وكما يقول درويش، الشعر دم القلب ودموع العين، صوت الشاعر صوت الحرية وصوت الأرض، لا يمكن أن يحبس في زجاجة. إذن ليس منع دفاتر الشعر ووضع التراب على فم الشاعر، وشدّ السلاسل على يده، مانعاً في سبيل مقاومة درويش، لأنه إذا شددت يداه وملئ فمه بالتراب يغني بلسان مليون عصفور على أغصان قلبه، و يكتب أبياته بالأظافر والمحاجرو الخناجر، والسجن لم يبعده عن الناس والأشياء والقضية، وهو يحكي قصة احتلال وطنه في كل مكان، في غرفة التوقيف وتحت السوط والقيد، يقول:

شدوا وثاقي

وامنعوا على الدفاتر والسجائر

وضعوا التراب على فمي

فالشعر دم القلب

ملح الخبز...

سأقولها

(درويش، ١٩٨٤م: ١٢٣)

يقدر درويش تحمل ألم السجن، ولكن الوطن هو الذي يؤذيه، ويحن إليه خلف السور والباب، ويذوق مرارة فراغه. إنه يريد أن يعيش حراً تحت ضوء عيني وطنه، ويرجو الرجوع إلى مهد طفولته، ولهذا نجد في حبسياته روح الأمل بالحرية والعود إلى حضن الأم، غير السجن وجهة نظره وزاد قيمة كل شيء عنده، وهو في السجن ينظر إلى كل شيء بالنظر الجديد. فصار القمر أحلى وأكبر في السجن، وصارت رائحة الأرض عطراً له، و طعم الطبيعة سكرًا له، إنه يرى حرته على سقف السجن، وهي مصلوبة على

النار، يصرخ ويخبر الجلاذ بعودته وتحرير المسجونين وموت أحزان السجن بعد أن
يسترجع الزيتون خضرته ويمر البرق في وطنه:

كنت مصلوبا على النار!

أقول للغربال: لا تنهشى

فربما أرجع للدار

وربما تشتتى السما

ربما...تطفىء هذا الخشب الضارى!

أنزل يوما عن صليبي

ترى...

كيف أعود صافيا...عارى!

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١١٣)

الصمود ورفض المساومة

تعلم شاعر المقاومة من جرح احتلال وطنه أن يقاوم و يمشى على جرحه، وأن
يصبح حتى العدم، وتعلم أن لا يقبل السلام من جانب اليهود، لأنه لا يستطيع أن يجمع بين
اقتراح السلام من جانب والظلم والجور من جانب آخر. يعرف شاعر المقاومة بروحه
السليمة خدعة العدو عند محاولتهم بفرض السلام عليه، ويعرف تاريخه وحضارته،
ويفخر بهما، ولا يخضع أمام العدو.

يقف محمود درويش كالشجر ويموت واقفا، لا يندم على صموده حتى إذا أريق
دمه. لأن خطواته في سبيل الصمود والمقاومة مثل الشمس للآخرين، ترشدهم ولا تقوى
بدون دمه:

لأجمل صفة أمشى

فلاأحزن على قدمي

من الأشواك

أن خطاى مثل الشمس

لا تقوى بدون دمي!

(درويش، ١٩٨٤م: ١٤٧)

إنه يصمد في طريقه، لا يقف ولا ينام، لأن النوم الذي يريده العدو يعادل الموت واغتصاب الوطن الكامل. فمن ينام وسط الطريق ويترك الصمود كأنه ينام خشبة النعش:

ولأقف

ولأهفو إلى نوم وأرجف

لأن سرية من ناموا

بمنتصف الطريق...

كخشبة النعش

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١٤٨)

كيف يساوم؟ وأنصاب القبور في "كفر قاسم" تمتد نحوه، وتريد منه "الصمود" كأنه يسمع أصوات شهداء كفر قاسم، ووصيتهم التي تستغيث بأن يقاوم، لا يريد شهداء كفر قاسم اليوم الندب والرتاء عند قبورهم، بل يصرخون:

لا تذلو! قفوا وخذلونا بالصمود

ماذا حملت لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم

غير المزيد من النشيد، من الحمائم...والجماجم..؟

هي لا تريد...ولا تعيد

رثاؤنا....هي لا تساوم

فوصية الدم تستغيث بأن تقاوم

في الليل دقوا كل باب

وتوسلوا ألا نهيل على الدم الغالي التراب

قالت عيونهم التي انطفأت لتشعلنا عتاب

لا تدفنونا بالنشيد، وخذلونا بالصمود

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٢٠)

يعتز درويش بهويته العربية وحضارته القديمة التي نبتت جذورها في فلسطين. هو عربي ولا يخجل، لأنه يعرف كيف يمسك قبضة المنجل، وكيف يقاوم الأعزل، وكيف يبني المصنع العصري والمنزل والمستشفى، ويأكل من يده، ولا يمدُّها إلى صدقات العدو:

سجل! أنا عربي

وأعمل مع رفاق الكدح في محجر

وأطالئ ثمانية

أسلّ لهم رغيف الخبز والأثواب والدفتر

من الصخر... ولا أتوسل الصدقات من بابك

ولأصغر

أمام بلاط أعتابك

(درويش، ١٩٨٤م: ٧٤-٧٣)

الوطن

«الإنسان شديد الصلة بالمكان الذي ولد فيه، ونشأ على ترابه، وهو البيئة التي لها الأثر الكبير في حياته وتكوينه الفكري والنفسي. فالإنسان يرتبط بوطنه ارتباطاً وثيقاً، فتأثير الوطن في الإنسان أمر محتوم.» (سارى الديك، ١٩٨٤م: ٦)

فإن هذه الصلة بين الناس والوطن أوثق في نفوس الشعراء، إذ يعاملونه إنساناً ذا روح و هوية. فدائرة الحب بينهم و بين وطنهم وسبعة، خاصة عند شعراء المقاومة الفلسطينية الذين يعيشون في وطن مكبول، يساوى الحب بالوطن بحب الحبيبة والأم في قلوب بعض الشعراء كمحمود درويش.

فإذا تكلم معه، كأنه يتكلم معشوقته، أو كأنه ابن مناضل يكلم أمه. ونشاهد مزجا عميقا بين صورة المرأة وصورة الوطن والعشق المتوهج إلى حد الفناء به. هو في قصائده

المجنون عشقا في تراب الوطن. فإن حبيبته هي الأرض، وهو يتغزل بها، لأنه يعتقد بأن القلب بلا حب هو قطعة لحم، تصلح أن تكون طعاما للكلاب.
هو شاعر الوطن. يدافع عن وطنه، ولعل كل ما يكتبه في نهاية الأمر يتخلص في كشف نفسية الإنسان الذي يدافع عن وطنه بمختلف الأشكال والأزياء:

نسيمك عنبر

أرضك سكر

وقلبك أخضر!

وإنى طفل هواك

على حضنك الحلو

أنمو وأكبر

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٢٤٤)

يقول درويش: «أنا لأكون إلا في الأرض، وكل وجود خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي.» لهذا نشاهد أشعار درويش عند قراءة ديوانه مليئة بوصف أرض الوطن وسمائه ومناخه، ونسائم ليلاليه البحرية وذرات التراب، وزيتونه ورائحة البرتقال والياسمين.
إن اهتمامه بالبرتقال والزيتون مستوحى من واقع الإنسان الذي غرس هاتين الشجرتين وسقاهاما بالعرق والأمل، منتظرا ثمارها. فهذه العلاقة بين الزارع والشجرة تحمل مدلول استمرار الحياة والأمل والوطنية والتلقائية. (درويش، ١٩٧١م: ٢٧٣)
إن التشبيب بالأرض عند درويش شديد، إذ يضع الوطن في حقيقته في بعض قصائده عندما يضطر بترك الوطن، ويحملة إلى أى مكان يهرب ويطارد في هـ. (بدوى، ١٩٨٥م: ٢٤٣-٢٤٢)

إنه يحب الوطن، حب القوافل واحة عشب وماء، وحب الفقير الرغيف، ويعطى عيونته وفؤاده له ويعشقه رغم أن حرير صدره فرش وثير للعدو:
سأحب شهدك...

رغم أن الشهيد يسكب في كوؤس الآخرين

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١١)

يعنى درويش لوطنه حتى على المشانق، ويعزف حبه بالوطن فى صدر يتأوّه بصوت يحصل من ذوبان قلبه تحت طاحونة الألم، إنه يحمل الوطن فى دفاتر شعره، ويريد أن يذكر بلده بأناشيده، إنه خلف السور والباب فى المنفى، ويستمر فى الحياة بعشق وطنه فقط، ويرجو أن يكون تحت عيني وطنه، لأنه جذر لا يعيش بغير أرضه، وتطير روحه دائماً فوق أعشاب أرضه كفحلة. فإنه شبه ألم البعد من الوطن بالنسر الذى يغمد منقاره فى عينه:

أيها النسر الذى يرسف فى الأغلال من دون سبب...
لم يزل منقارك الأحمر فى عيني
سيفا من لهب...

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٣٤)

حب الوطن يحتل ذاكرته ودماغه كالضوء، والوطن هو الصراخ الوحيد والصمت الوحيد عنده. فهو حزنه و فرحه، قيده وحريرته، شمسته التى تنطفىء، وليله الذى يشتعل، وهو موته وحياته، والرئة الأخرى بصدرة:

أموت اشتياقا
أموت احتراقا
شنقا أموت
وذبحا أموت
ولكننى لأقول: مضى حبنا، وانقضى
حبنا لا يموت

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١٧٨)

فإنما يبقيه حيا حب الوطن، كما يقول:
أيتها البلاد القاسية كالحاس
قولى مرة واحدة: انتهى حبنا

لكى أصبح قادرا على الموت، والرحيل

(درويش، ١٩٨٤م: ٣٨١)

يصدق درويش وطنه، ويرى مدنا ضائعة، يرى راية فلسطين المهتزة على الأرض، يرى كربلاء، يرى وطنه في حبال الشوك راعية بلاأغنام. وتؤذيه هذه الأربعة، ومع هذا لايزال يأمل بحرية وطنه من الاحتلال، ويحتمل المصائب، لكي يشاهد ميلاد صباح الوطن، ويؤمن بأن وطنه نخلة لن تنكسر في العواصف. إذن شبّه الوطن هناك بالنخلة في الاستقامة، وشبه الأعداء بالعواصف:

وأنت كنخلة في البال

ما انكسرت لعاصفة

وما جذبت ضفائرها

وحوش البيد والغاب

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٨٣)

الأمل إلى المستقبل

يعتبر شاعر المقاومة والألم والبؤس والحرمان جسرا يستطيع أن يوصله إلى الحرية. إنه يحتمل المرارة بأجمعها أملا إلى مستقبل يزدهر فيه شجرة النصر التي يسقونها الأطفال بدماء أريقت فوق ثرى فلسطين، ويطمئن بأن يوم النصر آت عن قريب. درويش من الذين يؤمنون بالغد. فهو أفضل من اليوم. فالشاعر يبشر على سبيل المثال بيوم ينهدم فيه غرفة التوقيف والسلاسل، وهذا المستقبل يتحقق بمجاهدة الأطفال المناضلين الذين يكبرون ويقلعون الصخر وأنياب الظلام:

من يرقص الليلة في المهرجان

أطفالنا الآتون

من يظفر الأحزان

إكليل ورد في جبين الزمان؟

أطفالنا الآتون
من يضع السكر في الألوان
أطفالنا الآتون
ونحن، يا معبودتي
نأخذه في غرفة المهرجان
نموت مسرورين
في ضوء موسيقى
أطفالنا الآتون

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٣٢٣-٣٢٤)

شبه درويش جثث الشهداء بحبوب سنبله تحت الثرى التى تسقى دائماً بدماء الشهداء.
إذن يعتقد بأن هذه الدماء سوف تثمر، وسوف تنمى الحبوب، وتملاً فلسطين بالسنابل:

شمسنا أقوى من الليل
وكل الشهداء

ينبتون اليوم تفاحاً وأعلاماً وماء

ويجيئون... يجيئون

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٧٣)

ينظر درويش يوم ميلاد أرضه فى ربيع النصر، اليوم الذى سوف تزدهر شجرة منبته
فى دماء الشهداء، ويحتمل الاحتلال بكل مصائبه لتحقيق هذا الأمل، ويضع من المشانق
ومن صلبان الماضى والمستقبل سلالم للغد الموعود:

سنضع من مشانقنا

ومن صلبان حاضرننا وما فينا

سلالم للغد الموعود

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١٤١)

النتيجة

محمود درويش شاعر كافعٍ عدوٍ وطنه منذ نعومة أظفاره، واعتقل في هذا السبيل عدة مرات، ولكن لم يفقد أمله في سبيل تحرير بلده، بل زاود عنها كما يدافع الغيور عن حبيبته. وهو شاعر ما أشغله أى شىء عن ذكر بلده، له حب وانتماء خاص بمسقط رأسه معتقداً بأن الوطن سيحررُ يوماً.

حصىلة أشعاره اجتمعت في عدة دواوين تطرق إثناءها إلى مشاكل مواطنيه؛ لم يستطع درويش اختيار الصمت أمام رؤية معاناة شعبه. فأنتشد عن مشاكل الاحتلال كالبؤس والحرمان والقتل والتشريد وصعوباته. يتحدث عن السجن ويعتقد بأنه لا يمنعه أى شىء عن الجهاد حتى السجن، يرى نفسه محروماً عن مناعم بلده، وحينئذ يتذكر أيام طفولته وسكونها، فيتأوه ويستغيث.

ليس للشاعر أى سلاح إلا الشعر فيتحدى به العدو، ويدعو الناس إلى الوحدة والثورة. لا يفقد الشاعر أمله في المستقبل وينظر إلى يوم ميلاد أرضه في ربيع النصر، يوماً سوف تزدهر فيه شجرة نابئة من دماء الشهداء.

المصادر والمراجع

- أحمد عثمان، حمزة. ٢٠١١م. اللغة العربية؛ مكائنها وقضاياها اللغوية. فصلية إضاءات نقدية. السنة الأولى. العدد الثاني. ٩-٣١.
- بدوى، عبدى. ١٩٨٥م. قضايا حول الشعر. مصر: دارالمعارف.
- درويش، محمود. ١٩٧١م. شىء عن الوطن. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.
- درويش، محمود. ١٩٨٤م. ديوان محمود درويش. الطبعة الحادية عشر. بيروت: دار العودة.
- درويش، محمود، وسميح القاسم. ١٩٩٠م. الرسائل. بيروت: دار العودة.
- سارى الديك، نادى. ١٩٨٦م. محمود درويش (الرسالة). بيروت: دار العودة.
- كاميل، روبرت. ١٩٩٦م. أعلام الأدب العربى المعاصر. سيرة و سير ذاتية. بيروت.
- كنعانى، غسان. ١٩٨٧م. الأدب الفلسطينى المقاوم تحت الاحتلال. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.